محاضرة / دراسات في فلسفة الرسم العالمي
محاضرة ٣ الكورس الاول

فكر الحداثة في الاتجاه الرومانسي

(شكل) ديلاكروا،الحرية تقود الشعوب،١٨٣٠

فالحداثة ارتبطت منذ البداية بمبدأ (الذاتية Subjectivity)**الذي شكل مضمون مايسمى (بالنزعة الإنسانية) ومعناه مركزية ومرجعية الذات الإنسانية، وفاعليتها، وحريتها، وشفافيتها،وعقلانيتها، فبحسب(هيجل) إن مبدأ الذاتية هذا بكل دلالاته قد فرضته أحداث تاريخية كبرى مثل:الإصلاح الديني، وعصر التنوير، والثورة الفرنسية، فيعبر عن ذلك بقوله : " إن مبدأ العصور الحديثة، هو عموماً (الحرية الذاتية)، بمعنى أن العلاقة بحرية الذات على المستويين: المعرفي (عقلانية الوعي) والعلمي:(ممارسة الحرية) هي التي تؤسس فضاء الحداثة "[١] .

عملت الحداثة، بوصفها ظاهرة في الأدب والفن وعموم فروع الثقافات الأخرى، على استحداث أشكال وموضوعات جديدة لم تنل اهتماماً بها في السابق، أي استدعاء كل مهمول ثقافي وطرحه بأساليب حديثة اعتمدت على مبدأ التجريب الذي لعب دوراً مهماً في تهيئة المناخ الملائم للانتقال من مرحلة تاريخية إلى أخرى جديدة .

فالسمات المميزة للفن الحديث هو" تأمله الذاتي، فالتأمل هو الإنقلاب كما أدركه الرومانسيون بالفعل، وأن ما ينعكس لا يبقى على حاله، فلقد إنقلب وتم إستبداله، وهكذا فالتأمل الذاتي هو تنصيب الذات واستبدالها معاً" [٢]. فالذات عند الحركة (ألرومانسيه/الرومانتيكية)* تتمثل في التعبير عن مجمل الطاقات الانفعالية والعاطفية، والقلق المتواتر وتصويرهم الحرب وأهوالها وتمجيد الحرية وأفضالها ، مشاعر دراماتيكية متأججة ألجأت الفنان الى خرق السائد والتقليدي في الفن. ففي لوحة (يوجين ديلاكروا) (الحرية تقود الشعب) (شكل).

تصور "الحرية كشخصيةٍ استعاريةٍ مثالية، لكن المعركة ذاتها، التي حدثت خلال (ثورة يوليو / تموز ١٨٣٠) مُصَوَّرةٌ بطريقةٍ واقعية جداً، بمَوت الأشخـاص الممددة على الحواجز تـحت أقدامِ الحريَّةِ وكـاثدرائية نوتـردام في أقصى اليمين مغَطّاة بالدخانِ "[٣] . هذه الحركة مثّلت تحوّلاً هاماً في الرسم الأوربي "وعملت على توسيع مساحة الافتراق مع فن النهضة السابق لها، مقترحةً بذات الوقت

حلولاً جدية لظاهرة العمل الفني المنظور من زاوية المشاعر والخيال الإنساني وسلطة الذات ..، مؤكدة أن للقلب دواعيه التي ليس بمقدور العقل القيام بها" [١].

** الذاتية Subjectivity : تعني تحرر الفرد من كل القيود التي تعطل قدراته الذاتية في البحث عن أنجح السبل لتحقيق ما يطمح إليه من تطور، ويمتزج هذا المفهوم بمقاصد المذهب الليبرالي الذي يعتبر الحرية هي الغاية الأولى والرئيسية التي يتطلع إليها الفرد بطبيعته، وفي المنطق هي نظرية ترفض ان يكون بين الثوابت والخطأ قيمة موضوعية وهي اعتبارات ذاتية فليس ثمة حقيقة مطلقة ، والذاتية هي كل حكم قيمي او ذاتي الى أفعال وأحوال فردية واعية او نزعة ترمي الى رد كل شيء الى الذات ، والذاتية في الجمال هي نزعة فردية ونظرية ترى إن الإحكام الجمالية لاتعبر الاعن ادوات فردية ،وفي الميتافيزيقيا تهدف الى رد كل وجود الى الذات او كل وجود الى الفكر والى نفي الاشياء واستبعادها . ينظر: موسوعة لالاند الفلسفية ،ط١،ج١، ت: احمد خليل، منشورات، بيروت، باريس،١٩٩٦،ص١٣٥٠-١٣٥١.

[١] - المقرصي ، ميلاد : موجز تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ، ط٢ ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص٢٣-٢٤ .

[٢] - ناجيل ، رينر ، الحداثة وما بعد الحداثة - حدود التعبير ، ترجمة : جوزيف نادر، مجلة الثقافة الأجنبية ، السنة الثامنة ، العدد ٣ ، بغداد ، ١٩٨٨ص٤٤ .

* الكلمة الفرنسية (Romantisme)، والإنكليزية (Romanticism)، والألمانية (Romantik)، والأسبانية والإيطالية (Romanticismo)، وترجع جميعها إلى كلمة (Roman)، والكلمة الأخيرة كلمة فرنسية قديمة تدل في العصور الوسطى على قصة من قصص المخاطرات شعراً أو نثراً . وكانت هذه الصفة تطلق على المناظر والأشخاص التي تذكر بالقصص أكثر مما كانت تطلق على الأحداث التي تحكى في تلك القصص . وكانت أيضاً تدل على الإنسان الحالم ذي المزاج الشعري المنطوي على نفسه، ثم امتد معناها ليشمل شبوب العاطفة والاستسلام للمشاعر والفردية والذاتية . للمزيد : هلال ، محمد غنيمي : الرومانتيكية ، دار الثقافة ودار العودة ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٥ – ٦ .

[٣]-Sayre. M. Henry:" A World of Art ", Pearson Custom Publishing, 2006, New Jersey, p. 487

كما يصرح الفنان (ديلاكروا) "إذا كان معنى الرومانسية هو التعبير الحر عن مشاعري الذاتية ونفوري من وصفات الأكاديمية، فأنا لست رومانسياً الآن فحسب، وإنما كنت رومانسياً منذ الخامسة عشرة من عمري "[٢]. وبهذا جاءت الرومانسية بأهم مبدأ لبنية الفن الحديث ألا وهي

(شكل)الجريكو، طوف الميدوزا ١٨١٩

(الحرية) وان كانت بسيطة، فنسق الذات هنا أنطلق بعيداً، ليبحث عن بنية استبدالية لها في عالم مجهول غلبت عليه بنية الخيال على الواقع ، كما تحررت الغوامض والعوالم الغريبة جاعلة من اللون النسق المهيمن في التعبيرعن "مجمل الطاقات الانفعالية والعاطفية، والأيمان بمكانة القلب، في عالم يعّج بالمجاهيل والقلق المتواتر والأحداث المؤلمة والحزينة ، ورسومهم التي حملت مواضيع شتى من بينها الحرائق والغرق والعواصف المتوّعدة ، وصور الفقراء والمحرومين، واستمتع الفنانون بحرية التعبير فسجلوا احداث عصرهم بحرية وعاطفة" [٣]. كما في تصوير الفنان (الجريكو) لحادث طوف (الميدوزا)(شكل).

فالرومانسية فتحت الباب لسلطة الخيال والذات، وإمكانية الإطاحة بالثوابت والنظم التي كان يدين بها الفن الكلاسيكي وعصر النهضة، مما جعل حركات الرسم الحديث تقتفي هذا الأثر في إيجاد نظامها البصري طبقاً لآليات تحركها رؤىً ومرجعيات فكرية خاصة بأي من هذه الحركات. وبهذا شكلت الرومانسية لحظة حداثة حقيقية بقطيعتها " لخمسة قرون من الجهد البحثي، فلم يعد المظهر الحقيقي للعالم المرئي ذا أهمية رئيسة، وصار الفنان ينشد شيئاًما تحت المظاهر، وينشد بعض رمز يتضمّن مغزى الواقعية بشكل يفوق ما يتضمنه أي نسخ مضبوط "[٤]. إن ذات الفنان الراغبة في التحديث بدأت تعي معنى الجمال الكامن في الأشياء، كما لا يخفى تأثير ورؤى وأفكار وطروحات الأدباء والفلاسفة والمفكرين على مسيرة الفن وأساليب الفنانين الفردية، النابع من وعي الفنان ذاته بمجتمعه ورغبته التوفيقية فيما بين الذات والموضوع ، بعدما فقدت الأساطير معناها الحقيقي لتلبس حلية جديدة ، محملة بمضامين حداثية أسفرت عن سمات وملامح وطابع هذا العصر ، بتصوير والتقاط اللحظات التي قد تبدو مرعبة أو مثيرة في عرضها للمشاهد الدرامية ، كما في لوحته لوحة الفنان الأسباني (غويا) في لوحته الشهيرة (اعدام الثوار).

---

[١] - عبد الأمير، عاصم : جماليات الشكل في الرسم العراقي الحديث ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الفنون الجميلة ، جامعة بغداد، ١٩٩٧ ، ص٧٢ .

[٢] - عبد العزيز، زينب : ديلاكروا من خلال مذكراته ، دار المعارف بمصر ، ط٢، القاهرة ، ٢٠٠٧ ، ص١٤٢ .

[٣] - حسن، محمد حسن : الأصول الجمالية للفن الحديث ، دار الفكر العربي ، مطبعة دار الجبل ، الفجالة – مصر ،ط٢، ٢٠١٢ ، ص ١٠٠- ١٠١ .

[٤] - ريد ، هربرت : حاضر الفن ، ت : سمير علي ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص٤١.